تجارة فاسدة

حديثى اليوم لا هو فى السياسة، ولا هو فى الدستور، ولا يمت إليهما بسبب من قريبٍ أو من بعيدٍ، إنَّه عن حالة اجتماعية مزعجة وشأن أخلاقى خطير. هو حديث عن تلك التجارة الفاسدة التى تعرض منذ سنين فى الأسواق المصرية، بضاعة إهدار الكرامات ونهض الأعراض. والتشهير بخلق الله، والإساءة إلى عباد الله، فى سبيل جمع المال الحرام، والكسب غير المشروع، ولا كلام، وهى تجارة يعلم الله أنها وإن بدت رابحة فهى فى الواقع خاسرة بائرة.

وأى فرق بين هذه التجارة الفاسدة وبين الاتجار بالرقيق وبالمخدرات وغيرهما من المحظورات التى تعاقب عليها القوانين فى جميع البلاد - وتحرمها القوانين الدولية وفقًا للاتفاقات والمعاهدات.

ولن يمنعنى ما يمسنى بين حينٍ وحينٍ من رذاذ عن الدعوة إلى محاربة هذه التجارة حتى ينتهى أمرها إلى البوار. ولا بد يومًا أن تتضافر الجهود لمحاربة هذا الوباء، بلا رحمة ولا انثناء، فهذا وباء لا بد أن تطهر منه البلاد، فهو رجس أشاع فيها الفساد، والفساد من عمل الشيطان، يسخط الخلق ويغضب الرحمن.

ومن عجب أنَّ أصحاب هذه البضاعة يظنون أنها رائجة لأنها رابحة. والصحيح أنَّ الناس لا يشترونها عن قبولٍ وارتياحٍ أو عن رضا وانشراح.

إنما الناس قد خلقوا طلعة سماعين يحبون أن يستمعوا كل يوم لحديث، ويطلعوا كل صباح على جديد، والناس هكذا خلقوا وعلى هذا مرَّت بهم العصور.

وقديمًا على ما قيل شاء بعض الحكام أن يشغلوا شعوبهم عن الجد بالهزل

فاخترعت قصص ألف ليلة وليلة وأبى زيد ودياب، وربما من هنا تمت عندنا نحن الشرقيين ملكة الاستماع ونشأ حب الاستطلاع، ولست تجد لشهوة الاستطلاع تأصلًا فى البلاد الغربية، فلكل شأن يلهيه، وعمل هو مؤديه.

ولتجار هذه البضاعة عندنا أساليبهم برعوا فيها للترويج، فهذه حكايات ماجنة وتلك صورة خليعة عارية، حتى لقد أفسدوا أخلاق الشباب، وأصبحت الآداب العامة كالسراب.

والقانون وحراسه ينام ودعاة الوعظ والإرشاد سابحون فى الأحلام.

وكل وزارة تلى الحكم على مر السنين مشغولة بنفسها وبشئونها وبخصومها، والوباء يتمشى فى عظام الأمة ولحمها حتى نخر سوسه فى العظم وأنتن اللحم.

ولقد يبلغ الأمر بالبعض منا - مع الأسف - أن يبدى الارتياح لأنَّ خصمه هو المطعون بهذا السلاح.

فمن منا لم تنله الإساءة فى نفسه أو فى بنيه. ومن منا لم يؤذ فى صحبه وفصيلته التى تؤويه. ولو أننا سلكنا فى حياتنا سبل الأبرار، وتخاصمنا فى أدبٍ ووقارٍ، وتجادلنا فى احتياط وعفة لسان، وتقارعنا بالحجة والبرهان، لاحتفظنا بالصلات والكيان، وبوحدتنا على مر الأزمان.

إنَّ هذه البضاعة لو ظلَّت فى الأسواق، فلن يكون بيننا اتفاق ولا وفاق، لأنها دائمًا تترك فى أجسام ضحاياها جروحًا، وفى أبدانهم قروحًا، ونحن أحوج ما نكون إلى صفاء القلوب والنفوس، ونحن نكاد نستقبل اليوم العبوس.

أسأل الله جلَّت قدرته أن يهيئ لنا من أمرنا رشدًا، وأن يهدى الضالين منا، إنَّه نعم السميع المجيب.